الفصل الحادي عشر

مرتكبو المعاصي

obeikandl.com

obeikandl.com

42

إن العبـارة التـي تزعـم أن التعصـب الوطنـي هو الملاذ الأخـير للمنحلّين هزل ينطوي على شـيء من الجدّ، كثيرًا ما تكون الوطنية المحمومة، أو الحماسة الدينية أو الثورية، مهربًا مـن تعذيب الضمير(*). ومن الغريب أن الجاني والمجني عليه، المجرم والضحية، قد يجدون في الحركة الجماهيرية الخلاص من حياة ملوثة. يبدو أن الشعور بالظلم والشعور بالندم يدفعان الناس في الاتجاه نفسه.

يظهر أحيانًا أن الحركة الجماهيرية مصممة خصيصًا؛ لتلائـم احتياجات مرتكبـي المعاصي، من حيـث تطهير نفسه وإتاحة الفرصة له لممارسة نزعاته ومواهبه. يستهدف أسلوب الدعوة إلى الحركة أن يثير في نفوس الأتباع شعورًا يماثل شعور المجرم التائب(1). إن الاستسلام التام، وهو المصدر الذي يمد الحركة بوحدتها وحيويتها، هو تضحية، تعبير عن الندم، ومن

(*) في المملكـة العربيـة السعوديـة تبين أن عـددًا لا يستهان به مـن المنضمين إلى الخلايا الإرهابية كانوا في السابق يتعاطون المخدرات (المترجم).

(1) «سـوف يكون هناك سرور في السماء بمجرم واحد يفوق السرور بتسعة وتسعين شخصًا تقيًا لا يحتاجون إلى توبة» انظر Luke 15: 7. و«المكان الذي يقف فيه التائب لا يستحق الأتقياء أن يقفوا فيه» كما جاء في التلمود. انظر:
Joseph Klausner. Jesus Of Naze Reth. P. 380.

الواضــح أنه لا يوجد ما يستوجب التضحية أو الندم ما لم يكن هناك شعور عميق بالذنب. يقول أحد رجال الدين المسيحيين: «يــا لصعوبة المهمة التــي تقابل الواعظ وهــو يبشر بالخلاص أناسًــا لا يشعرون بالذنب»[1] تنمي الحركــة أول ما تنمّي عند أتباعهــا شعورًا عميقًا بالذنب، أي أنها لا تكتفي بتصوير نفس الفــرد على أنهــا عقيمــة وبائسة، بل تضيــف أنهــا ملوثة. إن الاعــتراف والنــدم هما سبيل الفــرد إلى التخلص من ذاته، وبهذا يُفتح أمامه بــاب الخلاص: الذوبان في الوحدة المقدّسة التي تتيحها الحركة[*]. تتعاطف كل الحركات الجماهيرية مع المجرم وتحــاول بكل الوسائل اجتذابه. ومن هنا نجد القديس برنارد، رجل الدين الــذي كان وراء الحرب الصليبية الثانية، يقول لأتباعــه: «الدليل الأعظم على أن الغفران لا يأتي إلاّ من الله يتّضــح لنا عندما نجــد الله يدعو المجرمــين والمغتصبين والزناة والمزورين ومرتكبي كل أنواع الجرائم إلى طاعته كما لو

(1) A Letter In Life, Dec. 23, 1946 Written By R. S. Aldrich.

(*) يقــول عبــدالله ثابت: «كان شيئًا معتــادًا أن نسمع أن اثنين مــن إخواننا كشف أمرهمــا، وهما يتبادلان شهوة، فنعوذ بالله مما فعلاه، ونكرههما ونهجرهما، ثــم يجتهد الكثيرون في أن يخفوا مــا يستطيعون إخفاءه، مما يدور بينهم، وفي لحظــات التجلي والصراحة يعترف بعضهم إلى بعض، فيبكون ويعاهدون على التوبــة، وألا يقعــوا في شيء مــن هذا بعد مجلسهــم ذاك» الإرهابي 20، مرجع سابق، ص105.

كانوا أبريـاء أتقياء»[1] وتهتم روسيا الثورية، بدورها، اهتمامًا خاصًا بالمجرم العادي برغم قسوتها على المنحرف عَقَدِيًّا.

ولعلّـه مـن الصحيح أن المجـرم الذي ينخـرط في قضية مقدّسة يصبح أكثر استعدادًا للتضحية بحياته والقيام بأعمال عنيفـة من غير المجـرم الذي يقـدر حرية الأنفسـ والأموال. بإمكاننـا أن نعـدّ الجريمـة، إلى حـد ما، بديلًا عـن الحركة الجماهيريـة. عندما يضعف تأثير الـرأي العام وقوّة القانون، ولا يكون الفقر مدقعًا، فإن الضغوط على العاجزين عن التأقلم والمحبطـين كثـيرًا ما تنتهي بهـم في أحضـان الجريمة. ومن ناحية أخرى لوحظ أنـه في حالة صعود المدّ الثوري، سواء كان وطنيًا أو دينيًا أو قوميًا، فإن معدل الجرائم العادية ينخفض.

(1) Quoted By Brooks Adams, the law of civilization And Decay (New York: Alfred A. knopf, inc. 1943), p. 144.